أيّها الإخوة والأخوات المسلمون الأعزّاء،
أيّها الإخوة والأخوات المسيحيون الأعزّاء،

ليمنحكم الربّ سلامه!

في هذه السنة 1447 للهجرة و2026 للميلاد، بدأت جماعتانا معًا شهر الصوم والصلاة والمشاركة. معًا، وعلى الطرق التي تخصّ كلًّا منّا، ومخلصين لتقاليدنا الخاصّة ولكن تحت نظر الله، نحاول أن نُغيّر حياتنا نحو الخير وأن نقترب من العليّ ومن السُّبُل التي يريدها لنا في هذا العالم.

إنّ طرق التوبة الداخليّة الصادقة - كما نعلم من خبرتنا - ليس من السهل ان نسلكها، لأنّ ثقل العادات والخطيئة يضغط علينا. غير أنّها ليست الأخطار الوحيدة التي قد تهدّد رحلتنا الدنيوية في البحث عن الحقيقة والله معنا. فالعالم الذي يحيط بنا يمارس تأثيره أيضًا، فهو حاضر على موائد إفطارنا، وفي قراءتنا المواظبة لكلمة الله، وفي علاقاتنا الاجتماعيّة. وفي هذه السنة أيضًا يقتحم العنفُ شهورنا المقدّسة. فصور الحرب تتطبع في أعيننا وتضاف إلى مناخٍ من عدم اليقين الذي طبع الأشهر الأخيرة.

يبدو عالمنا بالفعل وكأنّه يمرّ بمرحلة غريبة، حيث تغلب شريعة الأقوى على مؤسّسات الوساطة الدوليّة؛ وحيث يعيد الخوف من الآخر التشكيك في نماذج العيش المشترك التي ورثناها من التاريخ ومن دروس المآسي الماضية؛ وحيث يصرخ شباب كثير من البلدان معبرين عن يأسهم من مستقبلٍ يشعرون أنّهم مستبعدون منه؛ وحيث تغذّي الآراء، التي تعظّمها وتعلي من شانها خوارزميّات وسائل التواصل الاجتماعي، إما دوّامة العبث أو رفيقتها التي تلازمها الثنائيّة التبسيطية الحادّة بين الخير والشرّ؛ وحيث تفقد الكلمة قيمتها كحاملةٍ للحقيقة لتصبح مجرّد استفزاز أو صرخة غامضة لتأكيد الذات.

هذا العنف المتعدّد الأشكال يتسلّل إلى كلّ مكان: إلى الساحة الجيوسياسيّة كما إلى المشاهد السياسيّة الوطنيّة، إلى أماكن العمل كما إلى المقاهي، إلى الجماعات الدينيّة كما إلى العائلات. فكلّ إنسان يتعرّض لجرعة جديدة ومتزايدة باستمرار من العنف وسوء الفهم والظلم. وما الجبهة الجديدة التي فُتحت في الشرق الأوسط إلّا تجلٍّ مأساويّ لهذا المسار.

فماذا يمكننا أن نفعل كمؤمنين أمام هذا الهيجان والانفلات الذين يهدّدان ذلك التطلّع الإنساني العميق إلى السلام؟

في هذه الأشهر المقدّسة التي نعيشها، نؤمن بأنّ الله يدعونا إلى نكون صلواتنا كثيرة ومستمرة من أجل السلام، لكي يتمكّن كلّ إنسان من أن يعيش في ظروف عادلة، بأمانٍ ومستقبلٍ مفتوح. ومن خلال نعمة الصوم، يدعونا الله أيضًا إلى اختبار الفقر والحاجة، وإلى مواجهة هشاشتنا وضعفنا، ولا سيّما أمام هذا العالم الذي نجد صعوبة في جعله أكثر إنسانيّة.

وأخيرًا، إذ يدعونا الله إلى المشاركة والمصالحة مع إخوتنا، فإنّه يدعونا، بعد الصلاة ومن عمق العجز الأساسي الذي نعترف به في أنفسنا كمخلوقات، إلى الإقدام على خطوات ملموسة نحو إخوتنا. إذ لا سلام دائمًا يمكن أن يتحقّق من دون تلك المبادرات الصغيرة جدًّا للمصالحة على المستوى المحلّي وفي أعماق قلوبنا. هناك بالذات تتحقّق توبتنا الأساسيّة وتحولنا الجوهري، في تلك المبادرات الشخصيّة والجماعيّة التي تعبّر عن إيماننا بأنّ السلام من الله وأنّه سيكون دائمًا أقوى من رغبات الحقد والانتقام.

وعلى هذا الطريق يفتح لنا رجلٌ آفاقًا جديدة: إنّه **القدّيس فرنسيس الأسيزي** الذي نحتفل هذا العام بمرور ثمانمائة عام على وفاته. كان فرنسيس (1181-1226) رجلًا من زمنه، عاشقًا للحياة والحرّيّة. عرف الغنى، لكنّه اختار أن يكون أخًا للجميع، ولا سيّما للصغار والمحتاجين.

لقد عرف الحرب والعنف، إذ شارك بنفسه في الحرب ضدّ مدينة بيروجيا المجاورة، وكان لاحقًا شاهدًا عاجزًا على الحملة الصليبيّة الخامسة في دمياط. كما اختبر الكلمات التي تدمّر وتقتل داخل الجماعة الدينيّة نفسها التي أسّسها: «نحن كثيرون ومن هذا النوع بحيث إنّنا لسنا بحاجة إليك» (من نصّ: الفرح الكامل). وشعر أيضًا في أعماقه بالرغبة في أن يستعيد السيطرة وأن يفرض المشروع والحقيقة اللذين أوكلا إليه من الله. وهكذا عاش، في زمنه، مواجهةً مع العنف المتعدّد الأشكال الذي تحدّثنا عنه.

كان يمكن لفرنسيس أن يستسلم لهذا العنف وأن يسمح له بأن يغمره. ولو حدث ذلك لفقد عطية الله نفسها، أي السلام. فقد قال:
»مهما كان عظم الخطيئة المرتكبة، قد يتألّم خادم الله في حبّه لله الذي أُهين، ولكن لا ينبغي له أبدًا أن يفقد سلام النفس ولا أن يغضب، لأنّه بذلك ينسب إلى نفسه، ظلمًا، حقًّا لا يخصّ إلا الله: حقّ الحكم على الخطأ.» (التنبيهات، 11).

وهنا يكمن الخطر الحقيقي: أن نسمح للعنف الظالم بأن يغمرنا فننخرط نحن أيضًا في دائرة الانتقام، فنفقد أنفسنا ونصبح شبيهين بمن اعتدى علينا.

لكنّ فرنسيس يبدو وكأنّه يفتح لنا طريقًا آخر، طريقًا ربّما كشف له - أو على الأقلّ تعزّز في قلبه - بعد لقائه بالسلطان الأيوبي **الملك الكامل** في دمياط في أحد أيّام خريف سنة 1219. وعندما عاد إلى إيطاليا وكتب قاعدة حياة الإخوة، قال إنّ إحدى طرق الذهاب إلى المسلمين هي «ألاّ يقيموا خصومات ولا جدالات، بل أن يخضعوا لكلّ خليقة بشريّة من أجل الله» (القاعدة غير المختومة 16:6)، مستلهمًا في ذلك الرسالة الأولى للقدّيس بطرس.

وهذا الخضوع لله العليّ الذي شاهده لدى محاوريه المسلمين، وسّعه تدريجيًّا ليشمل جميع الكائنات: من الأساقفة إلى المؤمن الآخر، ومن البشر إلى الحيوانات البرّيّة والوحيش، وكلّ ذلك بفضل الله والله وحده.

وبهذا يفتح لنا أفق طريق جديد في العلاقة مع الآخر: طريق ليس ضعفًا ولا استسلامًا ولا إلغاءً للذات. ففرنسيس لم ينكر شيئًا ممّا يحمله: لا إيمانه ولا طريقته في عيش رسالته. لكنّه قبل كلّ شيء رفض أن يهيمن على الآخر أو أن يفرض عليه شيئًا، حتّى ولو كان ذلك - في نظره - من أجل خيره.

ينبع هذا الخضوع من بصيرة عميقة جعلت فرنسيس يدرك أنّ فرض الذات على الآخر يعني أخذ مكان الله، أي ادّعاء مقامٍ لا يحقّ للمخلوق أن يدّعيه. ومن منطلقٍ مسيحي أعمق، فإنّ ذلك يعني إنكار الطريقة نفسها التي أعلن الله بها ذاته في يسوع المسيح على الصليب.

في هذه السنة اليوبيلية التي نعيش فيها ونحتفل بذكرى وفاة القدّيس فرنسيس، وهي ذكرى للنعمة، الغفران والتجديد الروحي في غمرة الاخوة، نودّ أن نقدّم لكم هذه البشرى الطيّبة: بشرى خضوعٍ وايمان مسالم وباعث على السلم في الوقت نفسه، كما قال البابا ليون الرابع عشر. إنّها رسالة ثوريّة بالنسبة للمسيحيّين كما للمسلمين، لأنّها تصطدم حاجتنا إلى حماية أنفسنا والدفاع عمّا نراه حقًّا وعدلًا. إنّها في الحقيقة أقرب إلى البعد الإلهي منها إلى البعد البشري.

ومع ذلك، فقد ترك لنا فرنسيس هذا الكنز والإرث لكي يساعدنا على كسر الدائرة التي لا تنتهي من العنف ومن السلام المفروض بالقوّة. فهل نجرؤ على أن نواجه الكراهية ببذل الذات وبالثقة في حضور الله في قلب كلّ حياة، حتّى حياة من يسيء إلينا؟ هل نجرؤ، بفضل الله وإرادته، على أن نغفر وأن نؤمن بأنّ مستقبلًا ممكنًا يترك للآخر أن يكون نفسه؟ هل نجرؤ على الثقة رغم كلّ شيء؟ لأنّه من دون الثقة لا يمكن للحياة أن تكون ممكنة، وسيكون الشرّ قد حقّق انتصاره الأخير في داخلنا عندما يجعلنا ننغلق على أنفسنا.

بتواضع، ومن عمق خبرات حياتنا المشتركة في مختلف أنحاء العالم مع الفقراء ومع جميع الثقافات، نودّ أن نقدّم لكم هذا الطريق للحياة وسط ظلمات عالمنا المتألّم.

رمضان مبارك، وصوم كبير مبارك أيضًا،

وليكن هذان الزمنان المقدّسان فرصة لنتعلّم أن نسلك في الطرق التي تسرّ الله وترضيه من أجل الإنسانيّة ومن أجل كلّ الخليقة التي ائتمننا عليها.

الهيئة العامة لرهبنة الإخوة الأصاغر (الفرنسيسكان)

لخدمة الحوار